



خرج علينا حاكم دمشق، أخيرا، بخطاب انتصاري، يعلن فيه أمام مؤيديه عديمي الحيلة أنه انتصر وحقق مشروعه التقدمي العقري الذي حلم بتحقيقه من أجل خلق سوريا جديدة، لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل. اعترف، هو أو من كتب له خطاب الانتصار، بأن سوريا فقدت "خيرة شبابها"، إلا أنه عاد، إلى طمأنة الخراف الكسيرة وعديمة الحيلةجالسة أمامه والمصفقة له بحماسة، أن خسارة خيرة الشباب ما كانت سوى ثمن ضروري لخلق "المجتمع المتجانس" السوري الجديد.

في ثلاثينيات القرن الماضي، حين وصل الحزب النازي إلى سدة السلطة في ألمانيا، كرر رأس السلطة في الحزب وفي الدولة النازية الجديدة، أدولف هتلر، في أكثر من خطاب، أفكاره الفلسفية عن معنى مفهوم "الأمة" وفكرة "الشعب النقي"، متأثراً بقراءاتٍ خاطئةٍ وملتويةٍ بعمق لأفكار هيغل ونيتشه والفكر الليبرالي الرومانسي الألماني في القرن التاسع عشر، نظرًّا الفوهرر بحماسة لفكرة "العرق النقي"، مقدماً عملية إحيائه، والسماح له بالتجسد مكانياً وزمانياً ومجتمعياً، السبيل الأول والأرجع لبناء مجتمع التفوق والتقدم والازدهار. تحدث هتلر عن ضرورة تنقية المجتمع الألماني من تلك الشرائح المجتمعية التي لا تساعده على إيجاد "مجتمع متجانس" ويخلق ألمانيا الجديدة. عم هتلر هذا الخطاب في أنحاء ألمانيا النازية، وتخلص من كل من خالقه واعترض عليه، مسبباً في النهاية لا مجرد حرب عالمية قادت إلى موت عشرات الملايين على امتداد أوروبا، بل واقترف واحدةً من جرائم التاريخ البشري الفظيعة، في محارق تصفية عرقية و"تنقية مجتمعية لخلق التجانس" (كما كان يقول ناطقوه الإعلاميون، من أمثال غوبلز في إحدى خطبه في جامعة هايدلبرغ مثلاً) حرق فيها حرفيًّا مئات ألوف اليهود والأقليات الأخرى اللا-آرية.

اليوم، يشهد التاريخ ولادة هتلرية جديدة في العالم المعاصر، إذ لم يعد العالم يهتز لرؤية حاكمٍ مستبدٍ، قتل نصف الشعب

السوري، ودمّره وشرّه وأخْفَى مصيره، وأعاد البلد إلى عصر ما قبل المدنية، وما قبل المجتمع، وارتُكَبَ أَفْظَعُ الجرائم والانتهاكات غير الإنسانية لكل ما هو بشري في الأرض السورية سبع سنوات، يردد خطاباً محشوًّا بأفكار نازية، اعتقَدنا أنها بادَت.

بأي "مجتمع متجانس" نبَشِّر في بلدٍ لم يعد فيه "مجتمع"، ولا أي تموضع بشري سوسيولوجي، ينطبق عليه أي عنصر من عناصر تكوين "المجتمعات" وبنيتها وماهيتها، كما نعرفها ونتعلّم عنها وندرسها ونختبرها؟ أي "مجتمع" تتحدّث عنه في سياق بشري لم يخسر فقط كل شبكات التعااضد والتواصل والتعايش المجتمعي بين شرائطه وجماعاته وفُئاته، بسبب خطاب كراهية وتشكيك وانقسام وعداوة وقتل دموي طائفي وسياسي وديني وعقائدي وسوسيولوجي وثقافي وإيديولوجي، بل خسر أيضاً الجزء الأكبر من بنية البشرية المكونة والمؤسسة، في ظلّ موت ما يقارب المليون مواطن سوري، وتشرد ما يقارب الإثني عشر مليون إنسان، وتهجيرهم واقتلاعهم، من أرضهم ومن بيوتهم، وفي ظلّ تدمير ما يقارب ثلثي البنية التحتية والمدنية لكل المدن السورية (موقع تموضع "المجتمعات" وبنائها وخلفها وعيشها)، وفي ظلّ انتهاك البلد واحتلاله من أكثر من خمسة جيوش أجنبية غريبة وإدارته المباشرة والتنفيذية من قيادات روسية وإيرانية وفقدان الأمة السورية أي سيادة وكرامة وكيان متماسك ناظم جمعي، يعرِّفها وفق أي مفهوم علمي موضوعي قاعدي، لفكرة "مجتمع" ولمفهوم "مجتمع بشري".

ثم، عن أي "تجانسٍ" مجتمعي تتحدّث في ظلّ واقع مأساوي تدميري، لا يمكن لأي مفهوم أو نموذج من نماذج التجانس أن يتحقّق فيه؟ أي "تجانسٍ" مجتمعي في ظلّ موت حالة "المجتمع" (سورية فيها "تجمُّعٌ ناجين لا "مجتمع") وغياب الحس والضمير والمعيار الأخلاقي الجماعي والسيوسيولوجي في عقول السوريين الباقيين ونفسياتهم وسلوكياتهم ورؤاهم (معظمهم يفعل مضطراً، وفي مقدمتهم مؤيدو النظام التواقون لمغادرة جنة "المجتمع المتجانس"، والذين بات كثيرون منهم قبل سواهم "لاجئاً" مزعمواً في بلاد العالم) في الأرض السورية. ما لدينا في سوريا اليوم جزر وتشريدات بشرية متفرقة لجمع بشري متفكك ومتشتّط ومتناقض، كل همه وهاجمه النجاة من الموت وال الحرب والاستمرار بالحياة بأيّ من الأشكال، بما فيها الخنوع والصمت. عن أي مجتمع متجانس، تتحدّث في ضوء غرق الإنسان السوري في الداخل في دوامة الوجود الفردي الأنطوي (أنا وبعدي سوريا)، والانهماك بالذات وعدم الاهتمام بعد الآن بالآخر ومصيره وحياته معه أو بوجوده حولي؟ أي "تجانسٍ" هذا نتوهّم في ظلّ واقع سوري مأساوي مدمر، يحتاج إلى عقود طويلة من إعادة بناء وتكوين، بل "وخلق من عدم"؛ الإنسانية الفرد ولبشرية الجماعة ولحالة العيش مجموعاً وبنية الأمة، ناهيك عن إعادة بناء بلد من الصفر، برع النظام صاحب نظرية "المجتمع المتجانس" في تدميره وإفقاء الإنسان فيه.

لم أشعر بالصدمة أو الاستغراب، حين سمعت "حاكم الشام" يعلن، قبل أيام، عن أفكاره المرعبة في خطاب انتصاره على سوريا وهزيمته شعبها، فالمنكور عرّفنا عن نفسه بلا مواربةٍ وبدون أي تحفظات منذ سبع سنوات كاملة، وما انفك يكرّر التأكيد، بأفعاله وأقواله، بأنه ما قلنا للعالم أجمع أنه عليه. ما جعلني أصاب بالرعب الشديد والقرف والحزن العميق أنه نمذج هتلريةً علنيةً، وأمام أنظار كل أوساط الفكر وصناعة القرار في العالم ومساعدهم، من دون أن يهتز لأحدٍ من هؤلاء جفن أو أن يكترث لما قاله أحد. يرعبني بعمق أننا نعيش في عالم عدّي مرعب متطرّف وجنوني، كالعالم المعاصر. يرعبني أن الطغيان والإجرام العنصري باتا من مظاهر عادية ومتّلّفة وشائعة، إلى درجة عدم الاكتراث لها. لا بل ربما بتنا اليوم، باعتبارنا جنساً بشرياً، نعيش في عالم فيه صناع قرار وأصحاب نفوذ لا يحلمون فقط بتأسيس "مجتمع متجانس" بل بإيجاد

"عالم متجانس" هتلرياً. في هذا السياق المعولم لإعادة إحياء الهتلرية وعولمتها، يصبح كلام بشار الأسد مجرد قطعة واحدة من صورة أوسع وأبشع وأكثر سوداوية تقتل الإنسانية، بدءاً من قصر المهاجرين ووصولاً إلى البيت الأبيض.

العربي الجديد

المصادر: